الموضوع: التأسيس لعلم السيميولوجيا

لقد كان للفيلسوف الأمريكي تشارلز سانردس بورس(Charles sanders peirce)* الفضل الكبير في إبراز هذا العلم الجددي، دون أن تكون له معرفة بما قد أُنجز في هذا المجال، وهو الأصل في تسميته بعلم **السيميوطيقا**(sémiotique).

*** التعريف بعلم السيمويطيقا:**

يحدد موضوع هذا العلم في دراسة جميع المعارف الإنسانية ويقول:« إنه لم يكن في استطاعتي أن أدرس أي كان الرياضيات، الأخلاق، الميتافريزيقا، علم الأحياء، الجاذبية والبصريات، الكيمياء، التشريح، الفلك، علم الفلك، علم الأرصاد الجوية... إلاّ كموضوعات للسيميوطيقا ».

وينطلق (بورس) في هذا الصدد من سؤال ضمني هو: هل بإمكاننا ن نفكّر بدون علامات؟ وبالتالي فإن ميدان الإحساس والإدراك والاستدلال حسب تصوره ينتمي إلى المجال السيميوطيقي، حيث تصبح سيميوطيقا بورس مطابقة لعلم المنطق ويقول:« إنّ المنطق في معناه العام وأعتقد أنني برهنت على ذلك، ليس إلاّ مرادفاً لكلمة السيميوطيقا»[1].

من هنا نسجل أنه من الصعب أن نفهم دراسته للعلامة، لأنها وردت في سياق منطقي دقيق، يعتمد كثرة التفريعات والتقسيمات التي تخرج بنا عن غرضنا. لهذا ينبغي التطرق والبحث في الخلفية والأساس الفلسفي الذي ارتكز عليه (بورس) في وضعه لهذه النظرية؟

*** الخلفية الفلسفية لنظرية بيرس:**

ترتبط نظرية بيرس بالمذهب الظاهراتي، ويعني دراسة الظواهر(phénoménes)، أي مجموع ما يظهر. يقول "بيرس" في هذا الصدد:« الظاهراتية (phanéroscopie) هي وصف الظاهرة، وأعني بالظاهرة الكلية الجماعية لكل ما هو حاضر في الذهن بطريقة ما، أب بأي معنى، دون اعتبار ما

[1] - C.S. Peirce : Ecrits sur le signe, éd Seuil, 1978, p 120.

* فيلسوف أمريكي عاش في الفترة الممتدة من 1839 إلى 1914. وهو عالم لغة وعالم رياضيات.

غذا كان هذا مناسباً لشيء واقعي أم لا، وإذا سألتم متى حضر وفي ذهن من؟ أجيب بأنني أترك هذين السؤالين دون جواب، دون أن ينتابني شك ابداً في أن سمات الظاهرة التي وجدتها في ذهني حاضرة في كل زمان وفي كل الأذهان ».

ومن هنا يقول بيرس أيضاً:« إن على الباحث أن يجتهد بتجنب التأثر بالتقليد والسلطة والأساب التي تقوده إلى افتراض ما يجب أن تكون عليه الوقائع... وعليه يكتفي بالملاحظة الأمينة والمستمرة للمظاهر...».

انطلاقاً من هذا يخلص إلى وضع مقولات تخص صيغ الوجود (les modes d'etre) ويقول:« رأيي أنّ هناك ثلاث صيغ للوجود وأجزم أنه بإمكاننا رؤيتها مباشرة في عناصر كل ما هو حاضر في الذهن في أي وقت بطريقة أو بأخرى ». وهذه المقولات هي:

*** مقولات الوجود:**

1- الأولانية(préméité): وهي وجود الشيء كما هو موجود دون أية علاقة مهما كان نوعها مع أي شيء آخر. إنها أقرب إلى الخصائص الحسية مثل رائحة رحيث الزهر. إن الأول يكتفي بذاته فهو لا يحتاج إلى ثانٍ ولا إلى ثالث لكي يوجد.

2 (**الثانيانية** (la secondéité):« فهي وجود الشيء في ذاته وفي علاقته مع شيء ثان دون الأخذ بعين الاعتبار لشيء ثالث مهما كان ». لأن كل شيء لا يمكن إدراكه إلا في علاقته مع شيء يقابله. فالقول بوجود مائدة، يعني القول بأنها صلبة ثقيلة إلخ. وبعبارة أخرى هو الوجود الواقعي المتجسد يرتبط بعالم الموجودات (الوجود المتعلق بما قبله) مادة الخشب. بتعبير آخر« إن الثاني يفترض أولاً، ولكنه لا يحتاج إلى ثالث لكي يكون ».

3 - **الثالثانية:** إنها تقابل "نظرية التوسط" إنها تقوم على إيجاد العلاقة المتبادلة بين الأولانية والثانيانية، أو بعبارة أخرى هي نمط الوجود المتوقع بناء على كون الحدث أو الشيء المتوقع الوجود محكوماً بقانون يضبطه. والقول بالقانون يعني إمكانية التعميم، من هنا يرى (بورس) أن الوجود الذي يقوم على واقع كون الثانيانية ستأخذ طابعاً عاما محدداً هو المقابل الثالثانية.

وهكذا، فانطلاقاً من مقولات الوجود الظاهراتية السالفة الذكر، يبني (بورس) نظريته السيميوطيقية. والسيميوطيقا بالنسبة إلى (بورس) مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعمليات الإدراك التي تقود الكائن البشري إلى الخروج من ذاته لينتشي بها داخل عالم مصنوع من ماديات يجهل عنها كل شيء. وفي هذا المجال يقترح بورس رؤية فينومينولوجية[2] للإدراك ترى في كل الأفعال الصادرة عن الإنسان سيرورة بالغة التركيب والتداخل. فكل ما يفعله الإنسان وكل ما يجربه وكل ما يحيط به يمكن النظر إليه باعتباره تداخلاً لمستويات ثلاثة. فالعالم أمامنا يمثل على شكل أحاسيس ونوعيات مفصولة عن أي سياق زماني أو مكاني، وهذا يشكل الأولانية فالساعادة مثلاً قبل أن يكون هناك إنسان سعيد، لم تكن سوى حالة شعورية محتملةز ويمثل في مرحلة ثانية باعتباره وجوداً فعلياً يأخذ على عاتقه تجسيد الأحاسيس والنوعيات في وقائع مخصوصة وهو ما يشكل الثانيانية، وتشير هذه المقولة إلى التحقق الفعلي (رجل سعيد مثلا). ثم يمثل أمامنا في مرحلة ثالثة باعتباره قانوناً أي باعتباره مفاهيم تجرد المعطى من بعده المحسوس لكي تكسوه بغطاء مفهومي وفي هذه الحالة نكون أمام القانون، وهو ما يتطابق مع مقولة الثالثانية، وهي التي تجعلنا نؤول سلوكاً ما باعتباره دالاً على السعادة ى التعاسة »[3].

يظهر لنا جياً أن رؤية بورس مصدرها فلسفي محض، إذ يرى التجربة افنسانية كلها كياناً منظماً من خلال المقولات الثلاث، وهي أصل ومنطلق إدراك الكون وإدراك الذات وإنتاج المعرفة وتداولها.

[2] - الفينومينولوجيا: نظرية المعرفة.

[3] - سعيد بن كراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، 2003، الرباط، ص 59.